

الثورات المحلية ضد الحكم العثماني بالجزائر ثورة ابن الأحرش - أنموذجا -

أ. عبو ابراهيم.

جامعة اسطنبولي - معسكر -

عرفت الجزائر مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عدة ثورات قادها هذه المرة زعماء الطرق الصوفية بسبب سياسة الحكام العثمانيين، وتغيّر الظروف الدولية نتيجة انقلاب موازين القوى العالمية.

إن نظام الضرائب كان يمثل العمود الفقري للبناء الاقتصادي في الجزائر العثمانية، والذي كان يستخلص من الرسوم الجمركية، والسلع المصدرة، والإتاوات، والرسوم على المحلات التجارية، والغنائم البحرية، وفدية الأسرى، وبما في ذلك هدايا القناصل.

وبما يلاحظ أن هذا النظام الضريبي في الجزائر العثمانية لم يكن عادلا، "ولا يراعي القائمون عليه طبيعة الإنتاج ولا وضعية الفلاحين وحالتهم"⁽¹⁾، فبالرغم من تنوع مصادر الدخل، فإن معظمها كان يأتي من القطاعات الاقتصادية ولا سيما القطاع الفلاحي.

بالإضافة إلى المداخل المذكورة، فرض الحكام ضرائب على النشاطات التي يحظرها الشرع، ولا تقرّها العادات المتعارف عليها تلتجئ إليها الدولة تحت وطأة الحاجة وعند الضرورة، مثل "رسوم الحانات المنتشرة في مدينة الجزائر، وضريبة النساء المنحرفات"⁽²⁾ التي يتولى المزوار استخلاصها، بالإضافة إلى "عمليات المصادرة والتغريم التي يتعرض لها بعض الأغنياء من الحضرة واليهود على السواء"⁽³⁾.

1. - سعيدوني ناصر الدين، البوعبدلي المهدي، الجزائر في التاريخ. العهد العثماني، ج4، الجزائر، م.و.ك، الجزائر، ص33.

2. - المرجع نفسه، ص34.

3. - نفسه، ص35.

موقف العلماء والمتصوفة من السلطة العثمانية

دخلت الجزائر الرابطة العثمانية باسم العقيدة الإسلامية "حيث كان الجهاد البحري هو الدافع الأساسي لوجودهم على شواطئ شمال إفريقيا، وكان الوجود الإسباني بالسواحل مصدر التحالف بين الجزائريين والعثمانيين"⁽¹⁾

ويعتبر العلماء أول من عارض التواجد المسيحي على شواطئ الجزائر، وقد تمكّنوا من إلهاب وإثارة حماس السكان وتجنيد الأتباع وتنظيم المقاومة، فالزوايا كان لها دور إيجابي منذ القرن السادس عشر الميلادي، حيث كانت عبارة عن رباطات ونقاط أمامية ضد العدو⁽²⁾.

وضمن هذا المنطلق سعى العثمانيون للبحث عن حلفاء لهم يؤمنون بفكرهم الجهادية، فوجدوا المتصوفة والعلماء، ولتدعيم الوجود العثماني قام عروج بزيارة العالم الصوفي "الشيخ الملياني"⁽³⁾ لكسب المساعدة الروحية.

إن هذا التحالف سيكون خير عون لمواجهة الأسبان، "وكان من مظاهره دعوة شيخ الملياني السكان الذين هم تحت نفوذه الروحي بتأييد العثمانيين"⁽⁴⁾، الأمر الذي رد عليه إسحاق واسكندر بحصار مدينة القلعة 1517/1518م.

ويذكر حمدان خوجة أن الأساليب التي اتبعها الحكام العثمانيون اتجاه السكان هو احترام العلماء ورجال الصوفية، حيث يقول: "وأعلموه (خير الدين) بأن هؤلاء البربر قد جعلوا ثقتهم بالمرايطين، والتعيس من يعاكسهم في هذا، بل حتى أثناء حرب درقاوة أوصى الباي محمد المقلش "جنوده بعدم التعرض لأي فار إلى الضريح"⁽⁵⁾ بأي حال من الأحوال، ولما انتهى القتال قاموا بزيارة الضريح وقدموا له صدقة تزيد عن مائتي ريال دراهم"⁽⁶⁾.

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 135.

2- المرجع نفسه، ص 267.

4. 3- الشيخ الولي الصالح القطب الغوث الزاهد العارف العالم، كان رحمه الله من أعيان مشايخ المغرب، وعظماء العارفين، تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعالات، كان متواضعا ورعا زاهدا، يحب الخلق في الطاعة ويحرضهم على الذكر ويرشدهم إلى الصراط المستقيم. توفي سنة 927هـ، أنظر الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص355.

4-Bodin (M). "Notes et questions sur sidi Ahmed BenYoucef". R.A, n° 66, 1925, p. 185.

5. 5- الضريح هو لسيد محمد بن عودة.

6- المزاري بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران وإسبانيا وفرنسا، ج1، تحقيق ودراسة بوعزيز يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 315.

وكذلك يظهر الاحترام للحكام للعلماء من خلال الرسائل التي كانوا يوجهونها لهم والتي تحمل عبارات التقدير والاحترام، كالرسالة التي بعث بها باشا الجزائر للشيخ الفكون عندما ساند الحكام العثمانيين في حربهم ضد ابن الأحرش ووقف الشيخ ضد محاولة غزو مدينة قسنطينة سنة 1804، وجاء فيها: "العالم الأشهر، أكبر الأنوار، مأوى القليلين، و ملجأ الضعفاء والمساكين، العرف بجميع العلوم والفنون... السلام على مقامكم الرفيع، وشخصكم الرائق البديع..."⁽¹⁾.

ومع انحصار الجهاد البحري بدأت تبرز في الأفق ملامح سياسة جديدة من أبرز سماتها الاختلاف والتباعد بين العلماء والحكام، خاصة بعد استعادة وهران من الأسبان سنة 1792م الذي يعتبر نقطة تحوّل خطيرة في التحالف بين العلماء ورجال الصوفية من جهة، والسلطة العثمانية من جهة ثانية، فعرفت الفترة الأخيرة محاولة إخضاع العلماء و رجال الصوفية لنفوذ العثمانيين، "مما أدى إلى نوع من القطيعة بين الزوايا وأتباعها، و الحكام"⁽²⁾.

ومما زاد في نفور العلماء ورجال الصوفية، إسقاط البايات العثمانيين امتياز عدم دفع الضرائب عن شيوخ الصوفية بعدما كانوا لفترة طويلة هم الذين يجبون الضرائب في مناطقهم ولصالحهم، مما أدى إلى الانفصال بين الطرفين، وفقد بذلك التحالف العثماني- الصوفي دعائمه الأساسية.

و من جهة ثانية، ثارت حفيظة رجال الصوفية بعد ازدياد شكاوى القبائل ضحايا ظلم وجشع البايات، فسقطت هيبة الحكام في نظر العامة، ولأول مرة وقع تحدي قوي للسلطة العثمانية ورغم ذلك لم ينتج عنه تعديل في سياسة وأسلوب الحكام"⁽³⁾ وهذه العوامل جميعها كانت سببا رئيسيا في القطيعة لبن العلماء والسلطة العثمانية.

إن التحالف بين السلطة العثمانية والعلماء والذي دام عدة قرون سرعان ما تلاشى وطرأت عليه تغيرات جذرية حالت دون استمراره، بل على العكس من ذلك تحوّل العلماء ورجال الصوفية إلى أداة تحريض للسكان ضد الحكام والسلطة العثمانية بفعل بروز عوامل متشابكة و متداخلة.

¹ - العنزي محمد صالح، سنين القحط والمسبغة، أو مجاعات قسنطينة، تحقيق ونشر رايح بونار، الجزائر 1974، ص 72.

² - سعيدوني/البوعديلي، المرجع السابق، ص38.

³ - المرجع نفسه، ص39.

أ / السياسة الضريبية:

عرف النصف الثاني من القرن الثامن عشر تقهقر مداخل الخزينة الجزائرية بفعل تراجع مداخل الجهاد البحري، "وتقلصت بالتالي ثروات سكان المدن وهي مع تنوعها واختلاف تسمياتها كانت ترتبط بوضعية الأرض ونوعية حيازتها وكيفية استغلالها وطبيعة علاقة سكانها بالحكام"⁽¹⁾.

و نتيجة لهذا التقلص في الموارد، توجه اهتمام الحكام نحو الداخل لتوفير احتياجاتهم المالية، فلم يجد هؤلاء إلا مضاعفة الضرائب على الرعية، وفي هذا الصدد يؤكد ابن هطال أن سبب خروج الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي هو إخضاع القبائل التي لم تنلها يد السلطة: "... رأى أنها ذات بلدان كثيرة، وأعراب راحلة ومقيمة غزيرة إلا أنه لم تنلها أيدي السلطنة، ولم يكن منها للملك مصلحة ولا منفعة معينة."⁽²⁾.

لقد اختلفت الضرائب التي فرضها الحكام باختلاف المناطق، فضرائب سكان المدن تختلف عن ضرائب الأرياف، وتأتي على رأسها الرسوم المفروضة على الدكاكين، والضريبة المفروضة على التجار وعلى البضائع التي تدخل الأسواق.

ورغم اندلاع الثورات ومعارضة العلماء ورجال الصوفية للسياسة الضريبية المجحفة، إلا أن الحكام استمروا في فرضها حتى بعد انتهاء ثورة درقاوة حيث واصل الباي حسن في استخلاص الضرائب رغم الوباء الذي ضرب الغرب الجزائري، "... وواصل استنزاف قبائل الرعية."⁽³⁾.

وفي سياق آخر يبين لنا الزهار ارتفاع قيمة الدنوش التي يحملها باي الغرب "و منذ ركوب الباي لدخول المدينة، وهو يرمي الدراهم يمينا وشمالا، ومن البايات من يرمي السلطاني الذهب، ومنهم من يلقي الفضة، ومنهم من يزرع الضبلون، و يتقدمهم الديوان مثل السلاق وعلى رؤوسهم الريش مصفوفاً يمينا وشمالا"⁽⁴⁾.

عندما يدفع البايات هذه المبالغ الضخمة وبعد رجوعهم إلى أقاليمهم يشرعون في النهب، وشن الغارات على الفلاحين الذين يدفعون ثمن رفاهية الداوي و حاشيته، ويؤكد الورثاني "أن العثمانيين لما

¹ - نفسه ، ص32.

² - ابن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري (تحقيق و تقديم محمد بن عبد الكريم الجزائري)، ط1، القاهرة، 1969، ص 37.

³ - المزاري، المصدر السابق، ص30.

⁴ - الزهار أحمد الشريف، مذكرات، نشر وتحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980م، ص 38.

دخلوا بسكرة أضروا بأهلها وأجحفوا بهم في الخراج، لذا اجتمعت عليهم غارات العرب من الخارج، وظلم الأتراك من الداخل"⁽¹⁾.

ب / علاقة الحكام بالرعية:

إن أهم ما يميز الطبقة الحاكمة في الجزائر كونها غير متجانسة، لا تربطها بالسكان إلا دفع الضرائب "والقبائل التي أطلق عليها اسم الرعية طبقت عليها قوانين الحرب الإسلامية التي تقع على بلد غير مسلم بعد فتحه"⁽²⁾.

فقد كان الهدف الأساسي للحكام العثمانيين والأجهزة التابعة لهم جمع الأموال عن طريق فرض الضرائب، وليس الرقي الاجتماعي والاقتصادي، فاحتكروا المناصب والوظائف السامية وأحاطوا أنفسهم بالحذر والخوف من السكان، ورفضوا فكرة المساواة بالسكان، وواصلوا تعديهم والتطاول حتى على الأوقاف، وهذا ما جعل الورثياني يقول "أنهم جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما وعدوانا"⁽³⁾.
إن سياسة الحكام العثمانيين اتجاه السكان كانت حاجزا منيعا نحو تحقيق الاندماج رغم توفر العامل الديني والمكانة التي كانوا يتمتعون بها في بداية تواجدهم بالجزائر، وهم يمثلون المنقذين للسكان من الخطر الصليبي.

وعموما إن سياسة العثمانيين وتصرفاتهم الخاطئة اتجاه الرعية نتج عنها سحق السكان ونفورهم، وفشل الحكام بالتالي في تعزيز وتأكيده فكرة التضامن الإسلامي التي لطالما كانت الحجر الأساس في بسط النفوذ العثماني في المغرب الأوسط وتشكيل إمبراطورية مترامية الأطراف في شمال إفريقيا.

ج / الانسحاب الإسباني من وهران 1792م.

يعتبر استرجاع وهران من الاحتلال الصليبي نقطة تحوّل في التحالف الذي جمع العلماء ورجال التصوف بالحكام العثمانيين، ليتحوّل هذا التحالف إلى قطيعة وتصادم وتشجيع على قيام الثورات الشعبية.
لقد كان الوجود الإسباني بالسواحل خاصة وهران والمرسى الكبير "مصدر تحالف بين العثمانيين والجزائريين"⁽⁴⁾، فالجهاد البحري أكسب العثمانيين المجد وجعل العلماء والصوفية يقفون إلى جانبهم للدفاع عن الإسلام والمسلمين ويصفونهم بالمنقذين، وبالتالي يقبلون بتواجدهم.

9. ¹ - الورثاني الحسين، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق ونشر بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، ج1، 2006م، ص118.

10. ² - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص208.

11. ³ - الورثاني، المصدر السابق، ص111.

12. ⁴ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص137.

لقد اتخذ الصراع العثماني-الإسباني طابعا صليبيا في ظل هيمنة الكنيسة المسيحية ودعمها المطلق للحملات على الشواطئ الجزائرية مما حمل العلماء على تأييد الوجود العثماني ومؤزراته بحكم المصلحة المشتركة. ولكن بعد انحصار الجهاد البحري والحلاء الإسباني عن مدينة وهران 1792م تحوّل التحالف إلى تباعد ونفور، ولم يعد يشغل بال الحكام العثمانيين إلا تثبيت وجودهم داخل البلاد.

3/ نتائج القطيعة بين العلماء والحكام العثمانيين.

تميّز الحكام العثمانيون بالانعزال عن السكان المحليين وترقّعوا عنهم، وتفنّنوا في فرض الضرائب التي تميزت في الكثير من الأحيان بالإجحاف والقسوة والظلم حفاظا على امتيازاتهم، كما عمل الحكام على وضع الوسطاء من العلماء وشيوخ الزوايا بينهم و بين الرعية.

وبعد تقلص مداخل الجهاد البحري، أرقق الحكام العثمانيون السكان بالضرائب المفروضة على سكان الأرياف والتي كانت غير قارة ولا محددة لا من حيث النوعية ولا من حيث الكمية، فالبعض كان يؤخذ عينا، وبعضها الآخر يستخلص نقدا⁽¹⁾، وهذه العوامل جميعها كانت سببا في انتشار الثورات المحلية ونذكر منها:

نماذج من الثورات المحلية.

ثورة ابن الأحرش 1219هـ/1804م "أمّودجا".

يذكر "BURBRUGGER" أن ابن الأحرش رجل في مقتبل العمر، طويل القامة أشقر اللحية يتمتع بصحة جيدة ويتميز بفصاحة اللسان وبسعة أفقه وشجاعته⁽²⁾، وعليه فمفسر ابن الأحرش تميّز على مسرح الأحداث كرجل دين وشريف.

وبعد أدائه فريضة الحج استقر بزاوية سيدي الزيتوني بناحية جيغل لتفقيه الناس، وأسس معهدا ببني فرقان لتلقين الصبية القرآن وتعليم الطلبة مبادئ الفقه، ومن هنا راح يلقي دروسا دينية على زائريه الذين أعجبوا بها و بفصاحته مما زاد في عدد الملتفين من حوله، وكان لإدعائه الشرف أن أكسبه الهيبة والمكانة، لأنه بهذه الوسيلة أبعد عن نفسه فكرة الانتماء القبلي، ثم قام بعد ذلك بمحاربة النصارى، فقام بتسليح عدة سفن بميناء جيغل وأرسلها لتعقب البواخر الفرنسية التي اعتادت التردد على سواحل القل وجيغل للصيد والتجارة⁽³⁾، وقد تمكنت إحدى سفن ابن الأحرش سنة 1803م من الاستيلاء على سفينة مرجان

1.13 - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص32.

2.14 - BURBRUGGER , « un chérif kabyle », in R.A T3 , 1858, P.212-213.

3. Féraud ch. les chérifs kabyles de 1804-1809 dans la province de Constantine R.A 1869-p.217.

تمتلكها الشركة الفرنسية التي كان مقرها مدينة القالة، بعد قتل وأسر البحارة الفرنسيين مما زاد في شعبيته من بين السكان المحليين.

قدر أنصاره في تلك القبائل بعشرة آلاف مقاتل قادر على حمل السلاح حسب العنزي⁽¹⁾، أما دوفو Douvoulx فيقدرهم ما بين 10-12 ألف مقاتل⁽²⁾. وفي شهر ربيع الأول 1219هـ/جوان 1804م أعلن ابن الأحرش الجهاد ضد الحكام العثمانيين "وأسس حكومة تقوم على المبادئ الإسلامية"، ثم هاجم الحاميات العثمانية والاستيلاء على مراكزها، وسار إلى قسنطينة في جيش كبير لاحتلالها وضمها إلى سلطته. أثناء حصار قسنطينة تصدت له قوات الحاج أحمد بن الأبيض الذي تولى أمور المدينة في غياب الباي وتمكنت من الدفاع عنها وإبعاد خطر المهاجمين⁽³⁾. ولما انتهى خبر الهجوم على قسنطينة إلى الباي عثمان بعد عودته من حملة سنوية لجمع الضرائب، فقام بتتبع المهاجمين وتنظيم الدفاع عن المدينة والاستعداد لملاحقة ابن الأحرش بعد التهديد والوعيد من داي الجزائر بإعلانه: "رأسك أو رأس ابن الأحرش"⁽⁴⁾. خرج الباي عثمان متوجها إلى ناحية وادي الزهور 1218هـ/1804م وهي منطقة جبلية كثيرة الأشجار وعرة المسالك، ولما وصلها الباي، يقول الشريف الزهار: "نزل في أرض هناك بين الجبال، وخيمت المحلة وابتدأ القتال ومن معه من القبائل"، ويضيف في ذكر سبب هزيمة الباي وجيشه: "فأطلق هؤلاء الماء على تلك الأرض التي بها المحلة فصارت مثل السبخة حتى ابتلعت أرجل الخيل إلى البوادر والرجال إلى الركبة"⁽⁵⁾.

وعن هزيمة الأتراك العثمانيين، يذكر صاحب الثغر الجماني "أنها كانت أشنع من هزيمة فرطاسة وذلك أن استقرار الباي في أرض منخفضة والأمطار الغزيرة التي ظلت تتساقط على المنطقة حالت دون استعمال المدفعية من طرف الجيش العثماني، أو ركوب الخيل، ولما تيقن الباي من فشل خطته والقضاء

16. 1 - العنزي محمد صالح، سنين القحط والمسبغة، أو مجاعات قسنطينة، تحقيق ونشر رابح بونار، الجزائر 1974 ص 29.

17. 2 - De neuve. LES Khouans ordre religieux. Gourdan. Alger. 1913. p. 126.

18. 4. سعيدوني، وراقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2000، ص 264.

أثناء الهجوم على قسنطينة تعرض ابن الأحرش إلى جرح خطير في ساقه أو يده حسب بعض الروايات بسبب عيار ناري أطلقه عليه أحد المدافعين، فحمل من طرف أتباعه إلى بني فرقان ليعالج من جروحه على يد أحد المشتغلين بالطب، وقد

ساعدت مهارة هذا الطبيب ابن الأحرش على الشفاء من جروحه بسرعة. أنظر سعيدوني، ثورة ابن الأحرش، ص 315.

19. 5 - سعيدوني، ثورة ابن الأحرش، المرجع السابق، ص 316.

20. الزهار، المصدر السابق، ص 86.

على ابن الأحرش، حاول التراجع حيث كان يعسكر سابقا عبر مسلك صعب، وهناك كبا به فرسه و انحدر إلى حافة السهل مقتولا⁽¹⁾.

11. بعد مقتل الباي عثمان بدأ تصميم السلطة المركزية بالجزائر على وضع حد لهذه الثورة، فخرج الحاج علي آغا لتهدئة الأوضاع بالمنطقة، وقد تمكن هذا الأخير من تبديد جموع ابن الأحرش بمساعدة أعوان المقراني، وبفضل التنقل الدائم للجيش الإنكشاري وبعد جهود مضنية وتحالف مع أسرة المقراني⁽²⁾، تمكنت هذه القوى جميعها من وضع حد نهائي لثورة ابن الأحرش بالشرق الجزائري رغم أنه تردد خبر وجوده بمدينة ميلة وبجاية، ثم ظهوره من جديد بين صفوف ابن الشريف عبد القادر الدرقاوي ويخوض معه عدة معارك بالغرب الجزائري⁽³⁾.

ويذكر عبد الرحمان الجيلالي أن الجزائر ما كانت تنتهي وتستريح من ويلات الحرب المحزنة حتى فاجأها الجذب والقحط بكامل البلاد وأصبحت تعاني من أزمة حادة وخائفة ارتفعت فيها الأسعار وغلا المعاش غلاء فاحشا⁽⁴⁾.

5/ فكر المقاومة في ثورة ابن الأحرش ودور العلماء والصوفية.

كبقية الثورات السابقة، كان للزوايا ورجال الصوفية حضور قوي ودور بارز في ثورة ابن الأحرش التي عرفت الجزائر، فابن الأحرش الذي لا تذكره المصادر المحلية إلا في إشارات عابرة بكونه أحد مريدي الطريقة الدرقاوية، اشتهر عند العامة "بالبودالي"، كان على رأس الحجاج المغاربة حين صادف الحملة الفرنسية على مصر، وأبلى بلاء حسنا مما أثار إعجاب الجميع، "وأصبح يقاتل الفرنسيين خارج مصر بما قدر عليه، وأثرت شوكته فيه، وأصبح له صيت بمصر إلى أن فتحها الله ورجعت للمسلمين"⁽⁵⁾. استقر قبل بداية ثورته بزواوية سيدي الزيتوني لتفقيه الناس بנاحية جيغل، وأسس معهدا ببني فرقان لتلقين الصبية القرآن الكريم ومبادئ الفقه، ثم قام بحرب النصاري بعد تردد السفن الفرنسية على سواحل مدينة القالة لصيد المرجان.

21. سعيدوني، المرجع السابق، ص 319.

22. المرجع نفسه، ص 277.

23. ¹ تردد مقتل ابن الأحرش على يد ابن الشريف في الجهة الغربية، لأنه كان منافسا خطيرا له، خاصة أنه أظهر استقلاله عن شيخ الطريقة الدرقاوية مولاي العربي. أنظر تحفة الزائر، ص 118.

24. 4- الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج 3، د. ج. م. و، دار الثقافة، بيروت 1982م، ص 261.

25. ⁵ - الزهار، المصدر السابق، ص 85.

جمع ابن الأحرش حوله الأنصار من مختلف القبائل الممتدة من ساحل البحر إلى نواحي قسنطينة⁽¹⁾، بعدما استمال إليه شيخ الطريقة الرحمانية المرباط الصوفي "سيدي محمد بن عبد الله الزبوشي"⁽²⁾، الذي جرده الباي عثمان من امتيازاته التي كان يتمتع بها، و أجبره على دفع الضرائب، وقد حاول الزبوشي أن يسترجعها دون جدوى، فاضطر إثر ذلك إلى الانسحاب إلى قبائل جبال أريس الواقعة على الضفة اليسرى من الوادي الكبير، ولما ظهر ابن الأحرش قرر أن ينضم إليه ويسانده في حركته ضد الحكام العثمانيين، وبدأ في إثارة السكان، وجمع المقاتلين الذين التفوا حول ابن الأحرش "...فنصروه وعقدوا له البيعة حزبا حزبا"⁽³⁾.

ثم إن الباي عثمان اغتر بكلام مرباط آخر وهو "بن بعريش"، وكان صديق الزبوشي حيث هُوّن عليه أمر ابن الأحرش وإمكانية القبض عليه، ونفور القبائل منه، وقد انطلت الحيلة على الباي، وإثر سقوط الباي عثمان من فرسه، قام الزبوشي بطعنه بسيفه ثم قام بحز رأسه، وحقق بذلك نذره الذي قطعه على نفسه عندما قام الباي بفرض الضرائب عليه رغم توسله لديه.

عرف ابن الأحرش في منطقته كرجل دين راح يلقي دروسا على زائريه الذين أعجبوا بفصاحته وقدرته على الإقناع، وكرجل شريف، وأدائه فريضة الحج، وكان لادعائه الشرف دور في إكسابه الهيبة والمكانة بعدما أبعد عن نفسه فكرة الانتماء القبلي، واستطاع من وراء سرد مغامراته في مصر ومعاركه ضد الفرنسيين أن يسحر السامعين ويثير فيهم روح الحماس والجهاد، وهذه كلها عوامل كانت وراء تقدير الناس له والتعلق به، ومن جهة ثانية راح يكشف لمثلي القبائل "عن مشروعه الطموح الذي يتمثل في تخليصهم من الأتراك الظالمين مثلما تخلص المصريون من الفرنسيين، بعدما شعر بالمؤازرة والالتفاف القوي من جانب هذه القبائل"⁽⁴⁾.

ولنصرة دعوته و توطيد مكانته بين السكان المحليين، لجأ ابن الأحرش إلى الحيلة واستعمال أساليب بسيطة تتوافق وعقلية سكان الريف، فاكسب أتباعا مخلصين له، و مؤمنين بقدراته، فلقد

26. 1 - القبائل التي ناصرت ابن الأحرش ووقفت إلى جانبه هي: قبائل عيدون، وبني مسلم، وبني خطاب، العنزي، المصدر السابق، ص 29.

27. 2 - هو المرباط الصوفي سيدي محمد بت عبد الله الزبوشي، ينتمي إلى الطريقة الرحمانية، ثار ضد باي قسنطينة وأنضم إلى الثائر ابن الأحرش سنة 1805م بسبب تجريده من امتياز عدم دفع الضرائب.

3 - المزاري، المصدر السابق، ص 299.

4 - Féraud. Les chérifs kabyles de 1804-1809 dans la province de Constantine. R.A, 1869. P.217.

ادعى أنه المهدي المنتظر، وأنه صاحب الوقت حسبما تعتقده العامة، ، وأن دعوته مستجابة، و النصر يتبعه أينما حل، وأن بارود عدوه لا يضر أتباعه بل يرجع عليهم ماء⁽¹⁾، ويذكر الزّهار "أن ابن الأحرش ظهرت له الكرامات"⁽²⁾.

أما العامل الثاني الذي زاد في شعبيته وشجع على ثورته، إعلانه الجهاد ضد الأوربيين وخاصة الفرنسيين الذين أسّسوا شركات لاستغلال المرجان بالقل، وتمكّن بالفعل من أسر ستة سفن مسيحية واستولى على بحارتها وحولهم إلى عبيد وكان من بينهم ستون بحارا فرنسيا⁽³⁾.

ولما أحسّ ابن الأحرش بأن الظروف الداخلية مواتية، أعلن ثورته على الحكام العثمانيين، فانسحبت الحاميات العثمانية من مدن جيجل، القل، عنابة حيث لم تبد أية مقاومة لضعف إمكانياتها في مواجهة جحافل القبائل الثائرة، فلجأت إلى مدينة قسنطينة عاصمة بايلك.

انتقل ابن الأحرش إلى مرحلة ثانية تمثلت في تنصيب نفسه حاكما، وشروع في تنظيم أمور المدينة والقيام بحماية الضرائب وحفظ الأمن، وبذلك أصبحت المنطقة الممتدة من ساحل البحر إلى مشارف قسنطينة تحت إمرته، وبدأ يطوف بمختلف القبائل لضمها إلى صفوفه، وأثناء احتفال ديني أعلن أمام أنصاره "أن الوقت قد حان والله سيبعد عنكم الطغاة، انهضوا جميعكم سيعيد لكم بونة وقسنطينة وحتى الجزائر"⁽⁴⁾.

¹ - الزباني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السّهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق و تقديم المهدي بوعبدلي، الجزائر 1979م، ص 325.

² - الزّهار، المصدر السابق، ص 84.

³ Feraud.nouveau documents sur l'insurrection contre les turcs en 1804 R.N.S.P.A.C.1974. P.44

⁴BERBRUGER. Un chérif kabyle. R.A.N13.1858.P210-

ولإعطاء الطابع الديني والجهادي لثورته تقرب من رجال الصوفية الناقمين على الحكم العثماني لجلب أكبر عدد من الأنصار لحركته يتقدمهم الصوفي عبد الله الزبوشي شيخ الطريقة الرحمانية. فمسار السياسي لابن الأحرش على مسرح الأحداث بدأ بزاوية سيدي الزيتوني بناحية جيغل "لتفقيه الناس وتعليم الصبية القرآن الكريم، وتعليم الطلبة مبادئ الفقه، وإلقاء الدروس الدينية على زائريه الذين أعجبوا بفصاحته"⁽¹⁾.

6/ هل العوامل الخارجية كانت وراء قيام ثورة ابن الأحرش؟

تشير المصادر إلى تعاظم الصراع والعداء الفرنسي-الانجليزي⁽²⁾ الذي رمى بضلاله على الجزائر من خلال محاولات بريطانيا المتكررة لدفع دايات الجزائر قطع العلاقات مع فرنسا ومنع تصدير الحبوب نحو الموانئ الفرنسية، كما أقدم الداي بالجزائر على غلق المؤسسات الفرنسية وهدم البعض منها بتحريض من بريطانيا، ومن جهة ثانية "أتصل الانجليز بابن الأحرش في مصر ومنحوه الهدايا وسارعوا بتقديم له يد العون ونقلوه مع بقية الحجاج المصاحبين له إلى تونس ومنها إلى عنابة على ظهر السفينة التابعة لهم"⁽³⁾. ومن جهة ثانية، ذكر الزهار: أن باي تونس أستقبل ابن الأحرش وأكرم وفادته، وأوعز إليه إمكانية الثورة على دايات الجزائر ووعدته بالعون والمساعدة قائلا: "إن رجلا مثلك شجاعا يجب أن يذهب إلى ملك الترك بالجزائر وينزعه من أيديهم، ونحن نمذك بما يخصك والعرب يتبعونك لكثرة ما ظلمهم الأتراك"⁽⁴⁾، فاستكان له ابن الأحرش، وكان غرض حمودة باشا أساسا إشغال حكام الجزائر في مشاكلهم الداخلية: "وكان مقصد حمودة باشا أن يشغلهم عنه لا غير"⁽⁵⁾.

¹ -BERBRUGER, OP.CIT, .P208

² - ظل الانجليز يحرصون للحصول على امتيازات تخول لهم استغلال الأخشاب وحق استيرادها من الجزائر مقابل رسم سنوي يقدر ب200 ألف. ف سنويا، وكانت هذه الأخشاب تجلب من الغابات المجاورة لجبال جيغل والقالا و القل، وهي تمتاز بجودة أنواعها في صنع السفن الشراعية والزوارق المختلفة.

³ - Shaw (Dr). Voyage dans la régence d'Alger (traduit de l'anglais par J.mac carthy), 2^{ème} édition. Édition Bouslama, Tunis, 1980, p. 344.

⁴ - سعد الله، المرجع السابق، ص 328.

⁵ - الزهار، المصدر السابق، ص85.

حاول "حمودة باشا" خلق صعوبات ومشاكل لحكومة ودايات الجزائر التي كان يناصبها العداء بسبب الحروب المستمرة التي كانت بينهما، فوجد في ابن الأحرش الوسيلة الملائمة للحد من تطلعات حكام الجزائر وإبعاد الخطر عن اية تونس.

كان ملوك تونس يبعثون مركبا محملا بالزيت وبعض الهدايا الرفيعة كل سنة إلى ملوك الجزائر فقطعوها في عهد حمودة باشا، "فاشتعلت الحرب بين البلدين، فبعث أحمد باشا المراكب الجهادية ليأخذوا ما وجدوه من مراكب تونس إلى أن يدفعوا ما عليهم من العادة التي ألزم بها ملوكهم بملوك الأتراك بالجزائر"⁽¹⁾.

ولما أحس حمودة باشا بالقوة بسبب ضعف حكام الجزائر والقلاقل بينهم، صار يتعلل على أهل الجزائر وأخذ في إزالة ما اعتادوه من التعدي، "الذي منه أن صاحب الجزائر أو قسنطينة يشتري الأنعام ويبيعها إلى البيع بتونس بثمان يلوح بالإشارة إليه، فيتعطل أهل البلاد عن بيع أنعامهم حتى يباع ما أتى من الجزائر أو قسنطينة، والذي يموت من تلك الأنعام في الطريق تزعم رعاته أنه سرق منهم في أرض تونس، فيزداد ثمنه على الثمن المطلوب"⁽²⁾.

بناء على ما سبق، يمكننا أن نرجح فرضية دور تونس وحمودة باشا في إغراء ابن الأحرش للإعلان الثورة ضد الحكام العثمانيين نظرا لحالة العداء القائمة والحرب المستمرة بين البلدين.

فنصيحة حمودة باشا لابن الأحرش بانتزاع الملك من الأتراك وأن العرب سيتبعونه ويؤيدونه، ما هي في الحقيقة إلا خدعة من باي تونس لإسراع بإعلان ثورته، وبالتالي إشغال حكام الجزائر في مشاكلهم الداخلية . وبالرغم من الصدى الواسع الذي لقيته ثورة ابن الأحرش والتفاف القبائل حوله في مختلف مناطق الشرق الجزائري، إلا أنه فشل في مسعاه الرامي إلى القضاء على الحكم العثماني، فلم ينضم إلى حركته شيوخ الزوايا والمرابطين إلا من كان معاديا للسلطة العثمانية مثل المرابط الزبوشي، بسبب تباين ميولها وانحصار نفوذها في جهات دون أخرى، كما أن الطريقة الرحمانية المنتشرة في الجهات الوسطى و الشرقية اتخذت موقفا حياديا⁽³⁾، وأن أغلب العلماء المحليين وقفوا ضدها تأييدا لمسعى السلطة العثمانية، بالإضافة إلى غموض مواقف ابن الأحرش السياسية و شعاراته التي رفعها ضد الحكام العثمانيين.

¹ - المصدر نفسه، ص85.

² - المصدر نفسه، ص96.

³ - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص39.